

لَا أَحَاوِلُ أَنْ أَدَعِيَ أَنَّنِي أَصْبَحْتُ حَكِيمَةً مُقَارَّةً بِمَا كُنْتُ عَلَيْهِ قَبْلَ تَلَاثَةَ أَعْوَامٍ مِنَ الْآنِ، وَلَكِنَّنِي كُنْتُ أَقْلَ خِبْرَةً وَأَكْثَرَ اسْتِعْدَادًا لِإِطْلَاقِ الْأَحْكَامِ الْجَاهِزَةِ عَلَى النَّاسِ وَالْأَفْكَارِ وَالظَّواهِرِ مِنْ حَوْلِي. وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ مِيلِي بِطَبْعِي إِلَى الْجَدَلِ، إِلَّا أَنَّ لِتُلْكَ التَّجَرِيرَةِ أَثْرًا فِي نَفْسِي يُشَبِّهُ أَثْرَ أَدْوَاتِ تَشْذِيبِ النَّبَاتَاتِ وَتَهْذِيبِهَا. إِذْ كُنْتُ كَثِيرَةَ الْحِرْصِ عَلَى تَبْنِي الْمَوْقِفِ الَّذِي لَا يَتَبَنَّاهُ أَحَدٌ فِي نِقاَشٍ مَا، كَعَادَةَ السَّنَفُورَةِ الْمُعْتَرَضَةِ، بِحَمْلِ رَايَةِ الدِّفَاعِ عَنِ الظَّاهِرَةِ دِفَاعًا مُسْتَمِنًا زَادَ مِنْ حِدَّتِهِ ارْتِفَاعُ نِسْبَةِ الطَّلَبَةِ غَيْرِ الْمُتَقَبِّلِينَ لِتَفَشِّي الْعَرَبِيَّةِ وَسَيْطَرَتِهَا عَلَى شَكْلِ تَوَاصِلُنَا الْيَوْمِيِّ. عَجَبًا لَهُمْ! وَذَلِكَ مَا لَا يَرْضِي بِهِ أَبْنَاءُ الْلُّغَاتِ الْأُخْرَى لِغَاتِهِمْ... فَهِيَ تُسَاهِمُ فِي خَلْقِ مَشْرُوعِ الْهِجْرَةِ الصَّامِمَةِ إِلَى لُغَةِ أُخْرَى، وَتَتَسَبَّبُ فِي زِيَادَةِ تَسَارُعِ تَحْقِيقِهِ عَلَى مُسْتَوَى الْلُّغَةِ الْمَنْتَوَقَةِ وَالْمَكْتُوبَةِ. بِلْ قَدْ يَتَجَاوِزُهُ إِلَى الْمُطَالَبَةِ بِالْاعْتِرَافِ بِهَذَا الْمَسْنُخِ الْكِتَابِيِّ فِي صِيَاغَةِ الْمُحْتَوَى الْدِرَاسِيِّ وَالْمُعَامَلَاتِ الرَّسْمِيَّةِ بِمَا يُحْقِقُ مُتَطَلِّبَاتِ الْوَاقِعِ الَّذِي يَمْلِئُ إِلَى الْأَسْهَلِ! وَقَدْ تَخْتَنَفِي الصُّورُ وَالْإِسْتِعَاراتُ، وَتَمَحِي الْعَيْنُ وَالضَّادُ وَالْقَافُ، تَسْبِبُ فِي خَلْقِ غُرْبَةِ فِي نَفْسِ الْجَدَةِ وَالْجَدِّ الَّذِينَ لَمْ يَتَعَلَّما عَيْنَ الْعَرَبِيَّةِ، وَمِمَّا قَدَّمْتُهُ حِينَذَاكَ فِي دِفَاعِي: - أَنَّ الْطِبَاعَةَ عَلَى مَفَاتِيحِ الْحُرُوفِ الْعَرَبِيَّةِ تَتَطَلَّبُ وَقْتًا مُضَاعِفًا مُقَارَّةً بِالْوَقْتِ الْلَّازِمِ لِلطِبَاعَةِ عَلَى مَفَاتِيحِ الْلَّوْحَةِ بِالْإِنْكِلِيزِيَّةِ. فَأَعْلَمُ نَحْنُ مِنْ عَصْرِ السُّرْعَةِ وَسُرْعَةِ الْعَصْرِ؟ - أَنَّ هَذِهِ الظَّاهِرَةَ لَا تُهَدِّدُ جَوْهَرَ الْلُّغَةِ وَلَا قَوْاعِدَهَا. وَنَحْنُ الْمُدَافِعُونَ عَنْهَا، لَا نُطَالِبُ بِأَكْثَرِ مِنْ حُرْيَةِ التَّعْبِيرِ عَنِ الْكَلِمَاتِ الْعَرَبِيَّةِ بِاسْتِعْمَالِ رُمُوزٍ مُسْتَعَارَةٍ مِنْ أَرْقَامٍ وَحُرُوفٍ لَاتِينِيَّةِ، وَهِيَ حَلٌّ مُبْتَكَرٌ أَوْ جِسْرٌ يَصِلُّ بَيْنَ طَرَفَيْنِ... سَقَطَتْ كَلِمَاتِيُّ الْأَخِيرَةُ عَلَى مَسْمَعِي كَحِجَارَةٍ صَغِيرَةٍ وَمُتَلَاحِقةٍ، وَهُوَ يَسْتَعْرِضُ الْعِبارَاتِ "الْكَوْلُ" عَبْرِ وَسَائِلِ التَّوَاصُلِ، وَتَصْنِيفِهِمُ الْحَارُ.